تنظير جميل والله المُستعان

بسمة النسور

يُعرّف الذكاء الاجتماعي بأنّه القدرة على التعاطي والانسجام والتآلف مع الآخرين، ويوصف الشخص بالذكي اجتماعياً حين يتمتّع بقدرة كبيرة على التعاطف مع الآخرين، وبالمرونة في التعامل والاستماع إليهم، واحترام آرائهم ومواقفهم، والقدرة على فهم (وإدراك) مشاعرهم وأحاسيسهم، وتتدرج تحت تلك الصفة عدة مهارات، مُفترض توفّرها، مثل مهارات الاستماع والحوار، والتحكّم وضبط النفس في حالة الغضب. ولا يمكن أن يُعدّ الواحد منّا ذكيّاً اجتماعياً ما لم يكن ذكيّاً عاطفياً؛ يتحلّى بالقدرة على تحديد عواطفه واستخدامها وفهمها وإدارتها بطرق إيجابية لتخفيف التوتّر والتواصل بفعالية، ما يُؤدّي إلى زيادة الثقة بالنفس وكسب احترام الآخرين، وتحقيق النجاح في الصعيدَين المهني والاجتماعي، من خلال تكوين علاقات شخصية متينة قابلة للاستمرار، ما يُحقّق التوازن النفسي. ويُؤدّي، في النتيجة، إلى بيئة حضارية متوازنة تسودها المحبّة والاحترام والتفاهم والانسجام، والقدرة على استيعاب المُختلف، ومحاولة التعرّف إلى أفكاره ومعتقداته، والبحث عن مُشتركات معه.

ما سلف، كلّه، يبدو تنظيراً جميلاً يشي بنمط تفكير حالم يتميّز به خبراء التنمية البشرية، في العادة، وهم يروّجون فكرةً إيجابية، من شأنها تطوير الأفراد وتنمية ذكائهم الاجتماعي، وذكائهم العاطفي، سعياً إلى حياة سعيدة خالية من المُنغّصات، وقد يتحقّق ذلك لمجتمعاتٍ مُتقدّمة تدرك قيمة الفرد وأهمّيّة دوره في نهضة مجتمعه، غير أنّ المشهد في منطقتنا مختلف كلّياً، ولا سيّما في زماننا الراهن، إذ تسود العلاقات مظاهر العدوانية والعصبية والفوقية، وضيق الأفق ورفض الآخر، وتوهّم الأفضلية واحتكار الحقيقة، ويمكن رصد هذا النمط السلبي في معظم أشكال العلاقات، سواء العلاقات بين الجيران، إذ اختفت مظاهر التوادّ والتراحم التي تربّينا عليها، وأصبح سكّان البناء، نفسه لا يعرفون بعضهم بعضاً، وقد لا يتبادلون التحيّات إذا ما تصادفوا في المصعد، ولا تخلو العلاقات بين الزملاء من الأنانية والغيرة والحقد وحبك الكائد والمؤامرات، في سياق التنافس، غير الشريف في معظم الأحيان. ولا يختلف الأمر بين الأقارب، فالخصومة والقطيعة والجفاء، لأسباب واهية، هي العنوان الأبرز لكثير من العلاقات بين ذوي القربى، حتّى الصداقة الحقيقية، وهي أكثر أشكال العلاقات حرّيةً بين الأفراد لأنّها تنشأ بالاختيار وبالإرادة الحرّة لأطرافها، فقد أصبحت بالعطب، فتحوّل الأصدقاء المُقرّبون معارف يتبادلون المُجاملات في المناسبات، وتقتصر لقاءاتهم على بضعة عبارات في صفحات التواصل الاجتماعي. حدث معي، وفي يوم واحد، أن اضطررت للفصل في نزاع بين جيران وصل إلى الضرب والتكسير، وتدخّل الشرطة، لسبب سخيف كان يمكن تداركه لو تحلّى الأطراف بشيء من سعة الصدر، وفي طريقي إلى ندوة ذات طابع سياسي تعرّض سائق بجواري لشتيمة بذيئة من العيار الثقيل، لمُجرّد أنّه توقّف عند الإشارة عندما كان لونها برتقالياً، من سائق مُستعجل ظلّ يُطلق بوق سيّارته كي يحثّه على المسير، رغم أنّ الإشارة أوشكت على الاحمرار، ما دفع الأول إلى الترجّل من سيّارته حاملاً عصاً غليظة انهال بها على زجاج سيّارة السائق الشتّام، ما أدى إلى تعطّل السير وتدخّل مجموعة من الشبّان لفض الخناقة حامية الوطيس. حين وصلت مقرّ الندوة، التي نُظّمت لإجراء حوار بين شخصية سياسية مرموقة وجمع من المُهتمّين بالشأن العام، كان يتحدّث بنبرة غاضبة ساخطة مُقرّعاً أحد الصحافيين، الذي وجّه له سؤالاً وجد سعادته أنّه سؤال مُستفزّ، فلم يتمالك أعصابه ولم يُفكّر بتقديم نموذج في أدب الحوار، وفي مهارات التواصل الاجتماعي، وكيفية ضبط النفس، بل أرعد وأرغى وأزبد، مُؤكّداً أنّه فعلاً «ما فيش فايدة».

(إعلامي من الأردن)

نكسة حزيران تتكرّر في القدس

داود كُتّاب

للمرّة الـ57 تحلّ ذكرى النكسة، التي شهدت احتلال باقي فلسطين ومناطق في سورية ومصر. ورغم أنّ مصر استردّت أراضيها، إلا أنّنا لا نزال نشهد استمرار احتلال طويل للضفة الغربية، بما فيها القدس، ولقطاع غزّة ولهضبة الجولان السورية. ورغم استمرار الاستيطان في باقي مناطق الضفّة، ويشهد القطاع حرب إبادة غير مسبوقة، من الضروري أن يُشار إلى ما يحدث في القدس المُحتلّة من محاولات تهويد وأسرلة، بعد الضمّ غير الشرعي للقدس الشرقية، وتمرير القانون الإسرائيلي غَوْغَة، وتطبيقه على سكّان المدينة. لقد شهدت القدس تذبذباً في دورها خلال العقود الماضية، وكان منها سنوات بدت ذهبية بمنح المواطنين والمؤسّسات المقدسية حرّيةً نسبيةً في العمل الإعلامي والفنّي والثقافي، خصوصاً في غياب قيادات تُوحّد الشعب، وزيادة في المرجعيات التي لا تعمل ما هو مطلوب، وتكتفي بتحصيل رواتبها الشهرية، وإصدار بيانات ركيكة في بعض المناسبات الوطنية. لقد شهدت القدس يوم ذكرى النكسة ما سمّي «مسيرة الأعلام الإسرائيلية»، هذه المسيرة العنيفة لطلاب المعاهد اليهودية المُتطرّفين دلّت على غياب موقف وطني مُوحّد يصدّ تلك المحاولات العنصرية من خلال مسيرة زفّعتْ شعارات استفزازية مثل «الموت للعرب»، وطالبت بحرق القرى العربية. قد تكون أكثر الصور أهمّية في فضح أهداف تلك المسيرة العنصرية تحوّل مصوّر صحافي إلى خبر حين حاول المُتطرّفون اليهود الاعتداء عليه؛ اعتدى هؤلاء المتطرّفون على الزميل سيف قواسمي، الذي كان هو نفسه يحاول أن يحمي الزميلة ديالا جويحان، كما تدخّل مراسل «هآرتس» نير حسون لحماية زميله المصوّر الفلسطيني، قبل أن تتدخّل الشرطة الإسرائيلية. ما يحدُث في القدس، وخصوصاً في البلدة القديمة، يعكس استمرار انهيار العمل الوطني الفلسطيني رغم بروزه في الأزمات على شكل فزعات، كما حدث في موضوع الأبواب الحديدية، وفي اقتحام المسجد الأقصى في المناسبات الدينية، إلا أنّ هناك غياباً كاملاً لخطّة استراتيجية وطنية للدفاع عن القدس، سكّاناً ومقدّسات، بما فيها إمكانيات الصمود. المقدسيون دافعوا بسبالة عن مدينتهم ومُقدّساتها، ورفضوا باستمرار المشاركة في انتخابات بلدية القدس المُوحّدة حفاظاً على فكرة أنّ القدس عاصمة الدولة وقد ساهم، مرّة كبيرة، في هذا التراجع مكانة المقدسيين ودورهم صعود الفاشية اليهودية المُتطرّفين دلّت على غياب موقف وطني مُوحّد يصدّ تلك المحاولات العنصرية المُمنهجة، التي تهدف إلى تهويد القدس وتفريغها من سكّانها الأصليين، وتحويلها إلى مدينة يهودية خالصة، وهو ما يتطلّب موقفاً وطنياً جامعاً، وهو ما لا يبدو أنّه متوفّر، بل إنّ الانقسام الفلسطيني يُعمّق الأزمة، ويُعطي الاحتلال ذريعة للتنصّل من مسؤولياته، بوصفه احتلالاً، وهو ما يحدث في الضفة الغربية، وفي قطاع غزّة، وهو ما يحدث في القدس، وهو ما يحدث في الجولان السوري المحتلّ، وهو ما يحدث في سيناء، وهو ما يحدث في أراضي 1948، وهو ما يحدث في الشتات، وهو ما يحدث في كلّ مكان.

انتخابات شمال شرقي سورية مدخلاً إلى التقسيم

احمد مظهر سعدو

تحاول قوى الأمر الواقع في شمال شرقي سورية، من جديد، إعادة إنتاج الواقع الانفصالي لما يصطلحون على تسميته إقليم «روج آفا»، حيث تسابق هذه القوى الزمن، تحت اسم إدارة الحكم الذاتي وإقامة انتخابات «حرّة» مفترضة توطئةً لإقامة الدولة الانفصالية المُبتغاة، واشتغالاً حثيثاً لاستمالة العشائر العربية الموجودة بكثافة في دير الزور والرقّة، والحسكة أيضاً، في محاولة من قوات سوريا الديمقراطية (مسد) ومجلس سوريا الديمقراطية (مسد) تجاوز ذاك التضادّ والتناحر والاقتتال الذي نشب قبل ذلك مع بدايات العام الماضي، بين العشائر العربية وقوى الأمر الواقع الكردية المُتحكّمة في تلك المناطق العربية، والمتغوّلة على أهل المنطقة، والناهبة خيراتها، والتي تعمل قوة احتلال وقمع واعتقال، ومن ثم فساد وإفساد، لا يقف عند حدّ، وبدعم أميركي من القواعد الموجودة في شمال شرقي سورية. لكنّ إعلان انتخابات محلّية شاملة لكلّ المواقع والجغرافيا التي تسيطر عليها «قسد» على أساس انتخابات محلّية شاملة لكلّ المواقع والجغرافيا التي تسيطر عليها «قسد» على قطاع غزّة، والتي يقال موضوعيّاً إنّ لها ما بعدها، وسوف تُؤثّر نتائجها بالضرورة على الواقع السوري برمّته، ليس في مناطق ما يسمى الحكم الذاتي في الشمال الشرقي فقط، بل على مجمل الوجود الاحتلالي العسكري والسياسي الإيراني، والمليشيات التابعة لها في الجغرافيا السورية، وأيضاً، حالة الاحتلال الروسي بكلّيته، ثمّ واقع (ومستقبل) النظام السوري، الذي ما زال يعثر في الأكم وفي الوهد، بعد أن أوصل سورية إلى حالة الدولة الفاشلة اقتصادياً وسياسياً.

من يحكمون شمال شرقي سورية، وظنّاً منهم أنّ الفرصة قد حانت واصبحت قاب قوسين أو أدنى من التحقّق، وأنّ الظروف الدولية والإقليمية، قد أزّفت وأضحت بمثابة بيئة صالحة، فقد راحوا يسارعون إلى إنجاز هذه الانتخابات مدخلاً أكيداً لتطبيق أحلامهم في قيام دولة كردية انفصالية شمال شرقي سورية، والمحاولة من جديد لإنفاذ عملي للمشروع إيّاه، لعلّ أهمّها المراقبة الأميركية الشديدة التي تمارسها قوات الأمن في الشواطئ التونسية، بحكم التزاماتها مع إيطاليا، وهي التي تعهّدت بتحديث أسطول المراقبة لفائدة القوات البحرية التونسية. لذلك، طال مكوث المهاجرين في تونس، وقد غدوا عرضة إلى جُلّ الانتهاكات الجسيمة لحقوقهم الإنسانية. وكلّما طالت إقامتهم، كانوا عرضة لأشكال مختلفة من المعاملة القاسية. في هذه المصيدة الكبرى للمهاجرين تنشط مُختلف شبكات الاتجار بالبشر، ويغدو الهروب منها حلماً، حتّى ولو على قوارب مُتهالكة. لذلك، نفهم، تماماً، ارتفاع عدد ضحايا هذه المغامرة القاتلة؛ تفيد الإحصاءات بأنّ عدد المفقودين قد ناهز 2500 في العام 2023، أي بزيادة قدرها 75% مقارنة بالعام 2022.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

فرحة ميلوني بتراجع تدفقات الهجرة

المهدي مبروك

لم تستطع رئيسة الوزراء الإيطالية جورجيا ميلوني إخفاء فرحتها الكبرى بتراجع ملحوظ لتدفقات المهاجرين الواصلين إلى شواطئ بلادها الجنوبية. لذلك، لم تكفّ منذ الثلاثاء الماضي عن إطلاق التصريحات المتتالية التي تقدّم فيها إحصاءات دقيقة عن هذا التراجع الحادّ. ربحت ميلوني الرهان، وهي التي خاضت حملتها الانتخابية على خلفية تعهّداتها بمكافحة ظاهرة الهجرة، ضمن خطاب شعبوي لا يرى في الهجرة سوى مشكلات وأعباء تُلقيها الدول الفقيرة على إيطاليا، تحديداً. استغلّت جورجيا ميلوني الأزمة الاقتصادية الحادّة، التي مرّت بها بلادها بعد جائحة كوفيد المؤلمة، وانطلاقَ حرب ضروس ليست بعيدة عن بلدها، وضعت، وجهاً لوجه، روسيا وأوكرانيا. المزاج الشعبي الإيطالي مُتبرّم من المهاجرين، وهو ينسب إليهم جميع مشكلات إيطاليا؛ ارتفاع الجريمة، والبطالة، والأمن الاجتماعي، وغلاء أسعار الإيجار... إلخ.

تنقل وكالة الأنباء الإيطالية (نوفا)، عن ميلوني تصريحات أدلت بها في بداية الأسبوع الماضي، قالت فيها إنّ تدفقات الهجرة تراجعت بنسبة تقدر بـ60%. زيارتها إلى البانيا؛ الدولة الأوروبية التي لم تنضمّ بعد إلى الاتحاد الأوروبي، في نطاق إشرافها على افتتاح مركز كبير لإيواء المهاجرين، الذين يُنقذون من الواحد الخطرة، التي رغم الردود الرسمية الشكلية عليها فإنّها لا تسمو إلى ما كان أوروبية بالضرورة، وهي تتطلع إلى موافقة تونس وبعض البلدان المغاربية الأخرى لتسلك على هذا المنوال. لقد طرحت ميلوني في زياراتها، العديدة والمُتكرّرة إلى تونس، هذا المقترح. ولكن، يبدو أنّه قوبل بتحفّظ كبير من السلطات التونسية، وهي التي قادت شراكتها مع إيطاليا في مكافحة الهجرة السرّية تحت لافتة «لا لتوطين المهاجرين»، على اعتبار هجرتهم مُؤامرة تستهدف التركيبة الديموغرافية للبلاد، وهُويّتها العربية. لم تنشر مُذكّرة التفاهم التي وقّعتها السلطات التونسية مع نظيرتها الإيطالية، حتّى نعرف تفاصيل هذه الشراكة، ولكن الأوضاع على الأرض، وبعض التصريحات الرسمية، تكشف أنّ تونس قد التزمت بمكافحة الهجرة السرّية، ولعبت دور جدار الصدّ الذي تتكسّر عليه كلّ موجات الهجرة القادمة من أفريقيا. ربحت ميلوني الرهان، وهي التي خاضت حملتها الانتخابية على خلفية تعهّداتها بمكافحة ظاهرة الهجرة، ضمن خطاب شعبوي لا يرى في الهجرة سوى مشكلات وأعباء تُلقيها الدول الفقيرة على إيطاليا، تحديداً. استغلّت جورجيا ميلوني الأزمة الاقتصادية الحادّة، التي مرّت بها بلادها بعد جائحة كوفيد المؤلمة، وانطلاقَ حرب ضروس ليست بعيدة عن بلدها، وضعت، وجهاً لوجه، روسيا وأوكرانيا. المزاج الشعبي الإيطالي مُتبرّم من المهاجرين، وهو ينسب إليهم جميع مشكلات إيطاليا؛ ارتفاع الجريمة، والبطالة، والأمن الاجتماعي، وغلاء أسعار الإيجار... إلخ.

تنقل وكالة الأنباء الإيطالية (نوفا)، عن ميلوني تصريحات أدلت بها في بداية الأسبوع الماضي، قالت فيها إنّ تدفقات الهجرة تراجعت بنسبة تقدر بـ60%. زيارتها إلى البانيا؛ الدولة الأوروبية التي لم تنضمّ بعد إلى الاتحاد الأوروبي، في نطاق إشرافها على افتتاح مركز كبير لإيواء المهاجرين، الذين يُنقذون من الواحد الخطرة، التي رغم الردود الرسمية الشكلية عليها فإنّها لا تسمو إلى ما كان أوروبية بالضرورة، وهي تتطلع إلى موافقة تونس وبعض البلدان المغاربية الأخرى لتسلك على هذا المنوال. لقد طرحت ميلوني في زياراتها، العديدة والمُتكرّرة إلى تونس، هذا المقترح. ولكن، يبدو أنّه قوبل بتحفّظ كبير من السلطات التونسية، وهي التي قادت شراكتها مع إيطاليا في مكافحة الهجرة السرّية تحت لافتة «لا لتوطين المهاجرين»، على اعتبار هجرتهم مُؤامرة تستهدف التركيبة الديموغرافية للبلاد، وهُويّتها العربية. لم تنشر مُذكّرة التفاهم التي وقّعتها السلطات التونسية مع نظيرتها الإيطالية، حتّى نعرف تفاصيل هذه الشراكة، ولكن الأوضاع على الأرض، وبعض التصريحات الرسمية، تكشف أنّ تونس قد التزمت بمكافحة الهجرة السرّية، ولعبت دور جدار الصدّ الذي تتكسّر عليه كلّ موجات الهجرة القادمة من أفريقيا. لذلك، لم تُفوّت ميلوني الفرصة في آخر تصريحاتها، حين رفّت للإيطاليين ذلك التراجع الحادّ في تدفقات الهجرة خلال السنة المُنقضية، حتّى تتوجّه بالشكر إلى تونس، وهي التي أبلت البلاء الحسن في التصدّي للمهاجرين. لذلك، تعترف ميلوني بأنّ هذه النتائج ما كانت لتتحقّق لولا «الجهد التونسي الذي بذلته دول شمال أفريقيا، وتحديداً تونس وليبيا». ومع ذلك، تفيد الإحصاءات الدقيقة بأنّ عدد المهاجرين الواصلين إلى إيطاليا، انطلاقاً من تونس تعدّ البلد الأول الذي ينطلق منه المهاجرون الواصلون إلى الشواطئ الإيطالية، بل عوّضتها في هذا الترتيب ليبيا، رغم كلّ الجهد المبذول، وفي كلّ الحالات، لم تعد محطّات الانطلاق مُهمّة في ظلّ التهريب الكبير لأعداد المهاجرين الواصلين إلى إيطاليا.

ما سكتت عنه رئيسة حكومة إيطاليا هو الجزء المخفي من جبل الجليد هذا. لا نعرف إن كانت تدفقات الهجرة هذه قد تراجعت من البلدان الأصلية أم ظلّت على حالها؟ تفيد كلّ الوقائع بأنّ التدفقات توا صلت بالنسق نفسه منطلقةً من تلك البلدان بالذات. إذ لا شيء تحسّن في حياة الناس، بل تزداد الأمور، هناك، سوءاً. التغيرات المناخية الحادة التي تشهدها القارّة، حالياً، علاوة على الحروب الأهلية التي تُمزّق بلداناً عديدة إثر الانقلابات العسكرية، التي حدثت خلال السنوات الماضية.

سنحتاج قليلاً من النكد حتّى تبدو لوحة السعادة، التي تعيشها ميلوني، كاملةً من دون خُجَب، فإذا كانت أعداد اللاجئين الواصلين إلى الشواطئ الإيطالية في تناقص واضح، وهذا مُؤكّد، فإنّ الجزء الأكبر منهم قد ظلّوا محاصرين في مسالك وعرة ومسدودة، بعد أن تحولت بلدان شمال أفريقيا، وتحديداً تونس، مصيدة للمهاجرين غير القادرين على الإبحار إليها مطلقاً لأسباب عديدة، لعلّ أهمّها المراقبة الأمنية الشديدة التي تمارسها قوات الأمن في الشواطئ التونسية، بحكم التزاماتها مع إيطاليا، وهي التي تعهّدت بتحديث أسطول المراقبة لفائدة القوات البحرية التونسية. لذلك، طال مكوث المهاجرين في تونس، وقد غدوا عرضة إلى جُلّ الانتهاكات الجسيمة لحقوقهم الإنسانية. وكلّما طالت إقامتهم، كانوا عرضة لأشكال مختلفة من المعاملة القاسية. في هذه المصيدة الكبرى للمهاجرين تنشط مُختلف شبكات الاتجار بالبشر، ويغدو الهروب منها حلماً، حتّى ولو على قوارب مُتهالكة. لذلك، نفهم، تماماً، ارتفاع عدد ضحايا هذه المغامرة القاتلة؛ تفيد الإحصاءات بأنّ عدد المفقودين قد ناهز 2500 في العام 2023، أي بزيادة قدرها 75% مقارنة بالعام 2022.

(أكاديمي ووزير تونسي سابق)

> التزمت تونس بمكافحة الهجرة السرّية، ولعبت دور جدار الصدّ لموجات الهجرة من أفريقيا

كاريكاتير — عماد حجاج

الإسلاموفوبيا التي لا تخبو حتّى تضطرم

سوسن جميل حسن

هاجم شابّ عمره 25 عاماً فعّالية نظّمتها حركة «باكس أوروبا» المناهضة للإسلام المُتطرّف، والتي يندّد خطابها بـ«تأثير الإسلام السياسي في المجتمعات الديمقراطية في ألمانيا وأوروبا»، بحسب قولهم، في ساحة السوق في مانهايم، في الـ31 من الشهر الماضي (مايو/ أيّار)، وأصيب ستّة رجال من بينهم ضابط شرطة عمره 29 عاماً توفّي لاحقاً متأثراً بجراحه. ولا تزال دوافع المهاجم، وهو أفغاني، غير واضحة. وكانت وزيرة الداخلية الألمانية نانسي فيزر قد أعلنت عقب الحادث في بيان: «إذا كشفت التحقيقات عن دافع إسلامي، فسيكون ذلك تأكيداً إضافياً للخطر الكبير الذي تشكّله أعمال العنف الإسلامية». وقال عن الرئيس الألماني فرانك فالتر شتاينماير إنّه «يشعر بالقلق إزاء هذه الظاهرة، معتبراً أنّ ألمانيا «يجب ألا يعتادوا أبداً على العنف في معركة الآراء السياسية». وقالت زعيمة حزب الخضر ريكاردا لانغ، لقناة تلفزيونية، إنّ «التطرّف الإسلامي عدوّ لمجتمعنا الحرّ، وتجب معاملته على هذا الشكل، من الجهتين الأمنية والمجتمعية، ولا يمكن تبريره مطلقاً».

دعمت حكومات غربية بعض جماعات الإسلام السياسي لأهداف سياسية، وما زالت، تنفيذاً لأجنداتها الخارجية، هذا ما أطلق عليه مارك كورتيس «زواج المصلحة»، في كتابه «شؤون سرّية: تحالف بريطانيا مع الإسلام الراديكالي» (ترجمة كمال السيد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2012). ليست المقالة بصدد مناقشة هذا الأمر، أو عن تاريخ جماعات الإسلام السياسي، إنّما بشأن هذه الحادثة المذكورة، التي تكرّرت بأشكال متنوعة في العقد الأخير، وفي أكثر من بلد أوروبي، ما أسهم بشكل واضح في تقوية اليمين الأوروبي المتطرّف وتوسّع قاعدته، ما يُشكّل تصعيداً كبيراً ومُقلقاً، وعدائياً، لصراع الهُويّات المتفاقم أطراداً مع أزمة عالمية تتجلّى في اشتعال الحروب بين أقطاب النظام العالمي والدول الأقوى في بقع عديدة على الأرض، بالتوازي مع حرب باردة صارت مباديء وقيمة ومنوعة في عصرنا الحالي، وصارت الحرب السيبرانية وحرب المنصّات الإلكترونية إحدى أهم أدواتها، ما يدفع العالم إلى مزيد من القلق والخوف والاضطرابات الوجدانية. المعتدي شاب أفغاني وصل إلى ألمانيا قبل عشر سنوات، ما يعني أنه كان في أول مراهقته، بل سيعني أنّ ما زال ينتمي إلى عمر الطفولة، كبر، تزوّج، صار لديه أبناء، صار بالغاً ومسؤولاً أمام الحياة وأمام القانون. مُؤكّد أنّ هذه البلاد وفّرت له أسباب العيش الطبيعي، وأمّنت حقوقه بموجب الدستور والقوانين المعمول بها، كذلك، ما دام أنّه صار لديه بيت وأسرة، فهذا يعني أنّه يعمل، أمّنت له الدولة الألمانية الجوّ المطلوب، والسكن، والعلاج، وتعليم أبنائه، وغير ذلك، مما يحتاج، وتحتاجه أسرته، فلماذا العنف؟

تتكرّر هذه الأحداث باستمرار، ما يجعلها سبباً فاعلاً في خيبة الأمل لدى المؤمنين بحقّ اللجوء، ولو نظرنا إلى الواقع لرأينا أنّ التعاطف الشعبي الذي أبداه الألمان، حكومة وشعباً، تجاه السوريين في أثناء موجة اللجوء الكبرى 2015، قد تراجع كثيراً، وأنّ الحوادث التي تقع في كلّ حين من مهاجرين مسلمين في غالبيتهم، تزيد في عدد المناهضين للجوء أو الهجرة إلى ألمانيا، وفي عدد المُؤيّدين لأحزاب اليمينية والشعبوية، التي تستغلّ هذه الأحداث من أجل التجييش ضدّ المهاجرين، والمسلمين منهم تحديداً.

اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتّحدة قراراً باعتماد 15 مارس/ آذار يوماً دولياً لمكافحة كراهية الإسلام؛ «الإسلاموفوبيا»، المصطلح الذي عرّفته بأنّه الخوف من المسلمين والتحيّز ضدّهم والتحامل عليهم، بما يُؤدّي إلى الاستفزاز والعداء والتعصّب بالتهديد وبالمضايقة وبالإساءة وبالتحريض، وبالترهيب للمسلمين ولغير المسلمين، سواء في أرض الواقع أو في الإنترنت. وتستهدف تلك الكراهية، بدافع من العداء المؤسّسي والأيديولوجي والسياسي والديني، الذي يتجاوز تلك الأطر إلى عنصرية بنيوية وثقافية، الرموز والعلامات الدالّة على أنّ الفرد المُستهدَف مسلم. ودعت إلى العمل والحوار من أجل القضاء على هذا المفهوم، في سبيل تقريب الشعوب بعضها من بعض، لكن السؤال يبقى مطروحاً: هل المشكلة بالفعل ناجمة عن «كراهية» موجّهة ومتأصّلة تجاه الإسلام والمسلمين؟ أم أنّ هناك أسباباً تخصّ المسلمين أنفسهم، أسباب تعد مشكلات بنيوية مُتجذّرة، إن كان في مستوى العقيدة، كما تروّج وتمارس من مشايخ ومنظمات دينية لديها مشروع سياسي، أو في مستوى السلوك والنشاط وفهم الدين ودوره وتوجيهه في الحياة، وفي العلاقة مع الآخر؟

لا أحد ينكر أن هناك تمييزاً تجاه المسلمين في المجتمعات الغربية من الأحزاب اليمينية، لكن هناك شريحة كبيرة من المجتمع تدافع عن حقوقهم، وتحارب الكراهية ضدّهم، وتدافع عن ثقافة باتت شبه متأصلة في المجتمع، تتبنّى شرعة حقوق الإنسان، ومنها الحريات، وفي مقدّمتها حرية الدين والمعتقد، وتضمنها دساتير الدول تلك. ليس من الأجدى استغلال هذه النقطة الإيجابية والبناء عليها في الخطاب والسلوك والممارسات؟ أليس من الأجدى استغلال هذه اللحظة التاريخية التي يتظاهر فيها الملايين في أنحاء العالم قبل أن تنشأ، حتّى لو كان الأمر يحتاج إلى التطبيع والتحالف مع بشّار الأسد، إن كان لا بدّ من ذلك، لمنع قيام أيّ دولة كردية قد تهدّد أمن تركيا. ولعلّ هذا الخيار ما زال قائماً، وقد يكون أحد الأسباب المباشرة التي جعلت الإدارة الأميركية غير راضية عن إقامة الانتخابات التي قد تفضي إلى دولة انفصالية، ومن الممكن أن يكون فارقة يحتاج فيها الغرب بكلّيته، ومنه أميركا بالضرورة، إلى التركيز على حربَين مهمّتَين في الإقليم، هما الحرب الروسية في أوكرانيا وتغيراتها وإشكالاتها، وكذلك، الحرب الإسرائيلية على قطاع غزّة، واحتمالات اتساعها، وانعكاساتها. ولذلك، أيضاً، تداعياته الآنية والمستقبلية، إذ لا يريدها الأميركان في اللحظة التاريخية هذه. ولعلّ الموقف التركي الرافض إجراء انتخابات في الشمال الشرقي، والولوج بعدها في دينامية إقامة الدولة الكردية المُستقلّة، هو ما يجعل احتمالات نجاح هذه الانتخابات أكثر صعوبة، إذ تعتبر تركيا أنّ قيام دولة كردية انفصالية تقودها منظّمة إرهابية، هي حزب العمّال الكردستاني، يشكّل خطراً كبيراً على بنية الأمن القومي التركي، وبهذا الاستقرار جنوب تركيا. إذ سارع رئيس الحركة القومية التركية دولت بهجلي، وهو حليف الرئيس رجب طيّب أردوغان، في الدعوة إلى الانقضاض على هذه الدويلة قبل أن تنشأ، حتّى لو كان الأمر يحتاج إلى التضحية بالتحالف مع بشّار الأسد، إن كان لا بدّ من ذلك، لمنع قيام أيّ دولة كردية قد تهدّد أمن تركيا. ولعلّ هذا الخيار ما زال قائماً، وقد يكون أحد الأسباب المباشرة التي جعلت الإدارة الأميركية غير راضية عن إقامة الانتخابات التي قد تفضي إلى دولة انفصالية، ومن الممكن أن يكون هذا التهديد قد أسهم في عملية تأجيل الانتخابات إلى أغسطس المقبل.

يضاف إلى ذلك أنّ الهيمنة الكردية (القسدية) إن صحّ التعبير، في مناطق جغرافية واسعة شمال شرقي سورية، وتململ العشائر العربية من أن تصبح قوى الأمر الواقع الكردية حاكماً أبدياً وفعلياً، يجعل من إمكانية قيامها أمراً ما زال صعباً، ولعلّ الأصعب منه هو الاعتراف به دولياً وإقليمياً. كما أنّ الحرب، التي قامت العام الماضي بين العشائر العربية و«قسد» وتوابعها، ما زالت تئدّ تحت الرماد، وهي مهيأة للانداع مرة أخرى، عندما يشعر العرب، وهم الأكثرية شمال شرقي سورية، بالخطر الكردي (من جبل قنديل) يهدّد أمنهم ووجودهم. من هنا، هذه الانتخابات التي كانت مزمعة في يونيو ثمّ جرى تأجيلها إلى أغسطس، حتّى لو تمت، لن يكتب لها النجاح المستقبلي، ولن تكون مقبولة من العرب في الشمال الشرقي، ولا من الدول الغربية أو من تركيا. وبالضرورة، ستقف كلّ قوى المعارضة السورية، في مواجهتها بكلّ تلاوين الطيف السياسي والعسكري والإثني، علاوة على اعتراض كثير من القوى الكردية المنضوية أتون المعارضة السورية، التي لا توافق، ولن توافق، على الانفصال عن سورية الأمّ، ولا تدفع أبداً نحو تقسيم سورية.

(كاتب سوري في غازي عنتاب)

> إعلان انتخابات في الجغرافيا التي تسيطر عليها «قسد» محاولة جديدة لاستثمار انشغال الدول الإقليمية والكُبرى في الحرب على غزّة

هل يجوز لنا انتقاد حماس؟

معن البياري

في جهةٍ ما، يبدو السؤال أعلاه نافلاً، لأنه يجوزُ لنا انتقاد حركة حماس. والمقصودون نحن الذين في ضفّة من يساندون المقاومة الفلسطينية، ومن يقيم فيهم إعجابٌ ببسالة المجاهدين الشّجعان في كتائب الشهيد عزّ الدين القسام، وإخوانهم في فصائل أخرى، وهم يحاربون في معركة كبرى ضد المحتلّ الغازي منذ ثمانية شهور في غزّة. وفي الوجهة نفسها، يكون السؤال نافلاً أيضاً، لأن ما من أحدٍ لديه سلطة أن يُجيز أو لا يُجيز في أمر كهذا. غير أن المسألة ليست بالبساطة هذه، فإنها السذاجة بعينها أن يُكتفى بنعم أو لا في الإجابة عن هذا السؤال الذي، من وجهةٍ أخرى، لا يصحّ أن يُعدّ نافلاً. وليست القصّة رغبةً في الجادلة (والمماحكة كما يحبّ بعضُنا) أن يذكّر أيُّنا السائلَ بأن القضية عيوصةٌ ومركّبة، يتقاطع فيها السياسي والأخلاقي والوطني، فوجهةُ كلّ الوجاهة أن يُقال إنه ليس من المناقبيّة في شيءٍ أن ينصرفَ واحدُنا، وهو في دعةٍ من أمره، إلى انتقاد أداء «حماس» في غير شأنٍ سياسيٍّ تفاوضيٍّ أو عسكريٍّ ميدانيّ، فيما المعركة شديدة الصعوبة، والحصار على المقاتلين مهول، وحساسية الحال عاليةٌ جدّاً. ولكنه وجيهٌ أيضاً أن يتصادّ، مع هذا المنطق، المُقنع في وجوهه، قولُ آخرُ ينظُر إلى فداحة النكبة الحادثة في أهل غزّة، وإلى أعداد الشهداء اليومية منهم جرّاء الإجرام الإسرائيلي، والتي تشلع أرواحنا، فيراهُما سببيْن ملحّيْن لتجاوب «حماس» مع عروض الهدنات المطروحة بكيفيّاتٍ أخرى، فالتقاط الغرّيْن ما أمكن من أنفاسهم عدّة أسابيع أدْعى من الانشغال بتفاصيل إجرائية من بينهيّ البديهيّات أن العدو الصهيوني قادرٌ، عملياً، على المراوغة بشأنها، وهو الذي تنعدم الثقة به أصلاً، ما يجعل البحث عن ضماناتٍ (أميركيةٍ وغيرها) تضييعاً للوقت. والوقتُ هنا يعني مزيداً من القتل الأعمى في ناس غزّة وترويعاً أكثر وتعطيلاً أشدّ للمستشفيات وقصفاً أزيد للمدارس ومراكز الإيواء.

ولّما كان الشأن الفلسطيني عموماً، ومنه شأن غزّة ونابسها، ليس موكولاً بالمطلق إلى حركة حماس، مقاتلةً أو مُفاوضة، ولّما كانت حرية الرأي والتفكير من أهم ما لا يجوز أن تتخلّى عنه النخبة الفلسطينية، على تنوّع مشاغلها، ولّما كانت تلاوين الرأي العام الفلسطيني في قطاع غزّة غير واضحةٍ أبداً، وتتوالى إشاعاتٌ وانطباعاتٌ مرتجلةٌ وأخبارٌ غير مؤكّدة عن تفاصيله، فإن لنقد «حماس» أن يكون محسوماً، وإنْ في غضون المعجزة التي يصنُعها في غزّة منذ ثمانية شهور شباب كتائب القسام، وإخوانهم في فصائل أخرى. وعندما يكون عيش الناس ومصائرهم في مهبّ الاستباحة التي يقترفها العدو المجرم بلا حدود، في انعدام أي حسٍّ أخلاقي منه، ومن دون اكتراث بمواقف عالمية وبنداءات الأمم المتحدة، ومن دون احترام لمطالبات محاكم دولية، فإن للفلسطيني أن يتذكّر البديهيّة الذائعة، أن تفادي الخسائر، أو تقليلها، والحدّ من أولى أولويات من يقودون الحروب والمواجهات. وأياً كان تعظيمنا المستحقّ جسارة المقاتلين في «حماس» وقوة إرادتهم، بل شديد إعجابنا بقدرات قياداتهم الميدانية، فإن هذا كله، وغيره، لا يعني تغييب حقيقةٍ، موجزُها أن «حماس» حركة مقاومة، وأن قدراتها مهما بلغت، تُؤذي العدو، وتُربكه، بل تفضح خيبة رهاناته، وتصل نيران قذائفها إلى ضبّاط وجنود مجرمين، لكنها لا تردعُه عن قصف سوقٍ في مخيّم النصيرات أو ضرب مخيم جباليا أو حرق خيام نازحين في رفح، أو تخريب مستشفى الشفاء. وهذا يعني، في الأول والأخير، أنه يجوز لنا، سيّما بعد إجهارٍ

حرب غزّة: صراع بين الوطن والأيديولوجيا... أيّهما سينتصر؟

علاء أبو عامر

كتب الروائي الفلسطيني الراحل، ابن دالية الكرمل، سلمان ناطور، يوماً، «فلسطين وطن وإسرائيل دولة»، وهذا يعني أنّ فلسطين الوَطَنَ مكانُ إقامةِ الإنسان الفلسطيني ومَقرّه وإليه انتماؤه، وُلد به أو لم يولد. بينما دولة الصهاينة تجمّع مُنظّم، أوجدته القوى الدولية في أرض فلسطين، ومنحته القوّة وفق شروط إقامة الدول، ولو بطريقة مُصطنعة من خلال حكومة الانتداب بريطانيا ووعدها المشؤوم، وقرار في الجمعية العامة للأمم المتّحدة، صدر بالضغط والإكراه من الدول القليلة عند التأسيس؛ أعضاء المُنظّمة الدولية المنبثقة عن المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، وطُبّق جزئياً. وتُعرّف الدَّوْلَةُ على أنّها جمع كبير من الأفراد، يَقْطن بصِفة دائمة، إقليماً معيَّناً، ويتمتّع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي وبالاستقلال السياسي. والفارق هائل بين المُصطلحَين، إذ يمكن أن يكون هناك وطن ولكن بلا دولة، بوصفها نظاماً سياسياً.

وربما فهم بشرٌ كثيرون في كوكبنا المعنى العميق لهذا القول في أثناء الحرب الحالية (2023 - 2024) على قطاع غزّة، التي لم تنتهِ بعد، حيث الفلسطينيون في القطاع، ومثلهم في الضفّة الغربية، رغم كلّ المآسي والقتل والإجرام وتدمير بيوتهم من الصهاينة، ظلّوا مُتعلّقين بأرضهم وبركام بيوتهم، وبالبقع التي نشؤوا فيها، ينزحون منها ويعودون إليها، رغم كلّ الظروف، مُعرّضين أنفسَهم للقتل أو الإصابة، مرّات ومرّات. في المقابل، ازدادت طلبات المهاجرين من اليهود الصهاينة في فلسطين المُحتلّة على الجنسية الأصلية لبلدانهم الأمّ، التي قدموا منها للاستيطان في فلسطين المُحتلّة، بل إنّ إحدى السيدات الأوكرانيات من محافظة خاركيف الأوكرانية عادت إلى بلدها هاربة مع عائلتها في أثناء هذه الحرب، وقالت: ما أجمل الوطن! ومن هؤلاء مئات آلاف اليهود الألمان والروس، وغيرهم، بحسب ما نشرت صحف صهيونية ذاتها، وشهدت دولة الصهاينة هجرة معاكسة بأعداد كبيرة جداً. لكن ما كشفته يوميات العدوان الصهيوأميركي على قطاع غزّة لم يُثبت أنّ «فلسطين وطن وإسرائيل دولة» فقط، بل الأدهى من ذلك أنّها أثبت بالمطلق أنّ «فلسطين وطن وشعب، بينما إسرائيل أيديولوجيا»، وليست أيّ أيديولوجيا، بل أيديولوجيا عابرة للقارّات والحدود، وليست أيديولوجيا دولة محصورة في جغرافيا المكان. وهذا ليس اكتشافاً منّا بل تاريخ، فالدولة التي أطلقَ عليها الصهاينة «إسرائيل»، تيمّناً بنبي الله يعقوب عليه السلام، هي نتاج الأيديولوجيا التي صاغها الكاهن الألماني مارتن لوثر في القرن السادس عشر، في كتابه «المسيح ولد يهودياً»، وتبنّاها أبو الصهيونية اليهودية «تيودور هرتزل» بعد لقائه، في أحد بارات مدينة فيينا النمساوية، القنصل البريطاني البروتستانتيّ في نهاية القرن التاسع عشر، المُكلّف من الحكومة البريطانية الصهيونية ذات العقيدة اللوثرية الساعية، وفق قادتها، منذ القرن التاسع عشر إلى إنشاء دولة بهودية، تحقيقاً لحلم العودة الثانية للمسيح، وفق التصورات الغيبية اللوثرية.

لقد صنعت الأيديولوجيا الصهيونية البروتستانتيّة المُستعمِرة الصهيونية في فلسطين، وأطلقت عليها تسمية «إسرائيل» كي تكون بديلاً من فلسطين. وحتّى تثبّتها في الوعي الجمعي للمجتمعات الغربية، بل العالمية، قامت بإسكات التاريخ الفلسطيني ما قبل الإسلام، وجيّرت الصهيونيتَين المسيحية واليهودية، الجامعات والمعاهد الغربية لمحوه واستبداله بزائف مفبرك ومصطنع اسمه تاريخ إسرائيل القديم، بهذه المصطلحات زُرعت الأيديولوجيا المُؤسّسة للمُقدّس الغربي، أي الصهيونية، في عقول الناس في الغرب، وفُبرك معها مصطلح «تراث إسرائيل»، و«ملوك إسرائيل»، و«حكم إسرائيل»، و«اللغة العبرية» قديمة وحديثة، و«الشعوب الساميّة»، وغيرها من الفبركات التي غزت العالم وثُبّتت في الثقافة العالمية حقائقَ من دون أيّ إثباتات علمية أو تاريخية، وهذه كلّها تدخل في صياغة الأيديولوجيا، التي يُعرّفها قاموس علم الاجتماع باعتبارها «نسقاً من المعتقدات والمفاهيم (واقعية ومعيارية) تسعى إلى تفسير ظواهر اجتماعية معقدة من خلال منطق يوجه ويبسط الاختيارات السياسية أو الاجتماعية للأفراد والجماعات وهي من منظار آخر نظام الأفكار المتداخلة كالمعتقدات والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع ما وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبررها في الوقت نفسه».

لا يمكن فهم وجود «دولة إسرائيل» إلّا وفق هذا المنظور الأيديولوجي، فعندما يخاطب عضوُ أحدِ لجان الكونغرس الأميركي من الحزب الجمهوري، ريك ألين، رئيسة جامعة كولمبيا نعمت شفيق، بشأن نصّ من التوراة، وتحديداً؛ الإصحاح الثاني عشر، ويسألها: «هل قرأت كيف أنّ الرب قطع عهداً مع النبي إبراهيم، أنّكَ إن باركتَ إسرائيل فسأباركُك»، ومع أنّ الربّ لم يقل ذلك في النصّ المشار إليه، والإصحاح، طبعاً، لم يذكر كلمة إسرائيل، نبيّ ولا دولة ولا قبيلة ولا شعبٌ، ولجهل نعمت شفيق المسلمة بما ورد في الإصحاح لم تجبه، لكن، لأنّ هذه أيدولوجية بروتستانتيّة مُعلّبة، ردّدها عضو الكونغرس، كما يردّدها غيره من سياسيي الغرب ورجال دينهم من الكهنة، مُقدّساً أيديولوجياً غير قابل للدحض أو التشكيك، وقد عاد رئيس مجلس النواب الأميركي مايك جونسون لترديد العبارة نفسها، لكن، بطريقة أكثر أيديولوجية بقوله، في ذكرى إنشاء الكيان الصهيوني، «الليلة نحتفل بأكثر من 76 عاماً من الإنجازات؛ نحتفل بتحقيق الوعود التي قُطعت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل آلاف السنين. نحتفل بوعود أسقطت الخلافة الإسلامية والإبادة النازية. الحلم الصهيوني أصبح حقيقة».

> ما كشفته يوميات العدوان على قطاع غزّة لم يُثبت أنّ «فلسطين وطن وإسرائيل دولة» فقط، بل أُثبت بالمطلق أنّ «فلسطين وطن وشعب»

> حرب غزّة كشفت أين تكمن مُعضلة النضال الفلسطيني التحرّري ومعيقاته خلال العقود الماضية

ولا يمكننا فهم التلاقي التامّ في التصريحات، بين كلّ من الجمهوري، عضو الكونغرس ليندسي غراهام، وعضو حكومة العدو، عميحاي إلياهو، بمطالبتهما قصف قطاع غزّة بالأسلحة النووية، ومحوه من الوجود، ولا يمكن فهم كيف تدعم الإدارات الأميركية المتعاقبة دولة الاحتلال بمبالغ سنوية تفوق سبعة مليارات ونصف مليار دولار سنوياً، تُجمع من جيوب الشعب الأميركي في شكل ضرائب، رغماً عن إرادتهم. ويبدو أنّ ذلك هو ما يحصل في معظم دول أوروبا الغربية، خصوصاً البروتستانتيّة منها، كبريطانيا وألمانيا، وكذلك، هناك حصّة ما من أرباح عديد من الشركات العابرة للقارّات، ذات العلامات التجارية البارزة مثل «ماكدونالدز» و«KFC» و«ستاربكس» و«ZARA»، وعشرات الشركات الأوروبية والأميركية والأسترالية وغيرها، بل إنّ تبنّي رئيسة مفوضية الاتحاد الأوروبي أورسولا فون ديرلاين السردية الصهيونية بشأن الوضع في فلسطين «أنّها كانت أرضاً بلا شعب وصحراء عمّرها اليهود الصهاينة» دليل آخر على أنّنا نتحدّث عن أيديولوجيا دينية غيبية، مُتعدّدة الطبقات، يبدو فيها أنّ اليهود المُنتمين، على عكس الشائع، أقلّيّة، بينما الصهاينة المسيحيون من البروتستانت هم الأكثرية العظمى، وعليه، نحن نتحدّث عن عشرات الملايين من المسيحيين الصهاينة في دول مثل الولايات المتّحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزيلاندا والدنمارك وألمانيا وهولندا، وغيرها، بينما الأمر لا يتجاوز عشرة ملايين يهودي في كل أنحاء العالم، على أبعد التقديرات. بل هناك مُؤشّرات على أنّ الأيديولوجيا الصهيونية تجاوزت العالم المسيحي البروتستانتيّ التقليدي، واخترقت مجتمعات أخرى، من خلال حركات دينية مثل «شهود يهوه»، التي تنشط في البلدان المسيحية الشرقية، والدول الإسلامية ومنها العربية، وتنشر الأيديولوجيا الصهيونية.

وكشفت الحرب الصهيوأميركية على غزّة إبّان ثورة الجامعات الأميركية والأوروبية أنّ كلّ ما كان يشاع عن التكنولوجيا الإسرائيلية المُتطوّرة، مدنية وعسكرية، هو في الأساس غربي تُنتجه الجامعات والمعاهد الأميركية مثل جامعات كولمبيا ومعهد ماساشوستس للتكنولوجيا وجامعات كاليفورنيا ونيويورك، وعشرات غيرها، لإشاعة انطباع بالمعجزة اليهودية الصهيونية مقابل التخلّف العربي. ولأنّ إسرائيل أيديولوجيا لا دولة فقط، حوّلتها النُّخب الأميركية والأوروبية إلى بقرة مُقدّسة يُمنع مسّها وانتقادها أو معاقبتها، لذلك، يمكن للمرء أن ينتقد الرئيس الأميركي والكونغرس والكنائس، بل حتّى الاستهزاء بالسيد المسيح بن مريم عليه السلام، وأيّ شيء آخر في أميركا وأوروبا مهما علا شأنه، لكن، لا يمكن فعل ذلك في ما يتعلّق بإسرائيل، سياسياً، أو حتّى التشكيك فيما فُبرك لها من تاريخ وأساطير مُؤسّسة.

كشفت حرب غزّة أين تكمن مُعضلة النضال الفلسطيني التحرّري ومعيقاته خلال العقود الماضية، إذ برهنت الأحداث والمواقف أنّ الأيدولوجيا الصهيونية اليهومسيحية هي حائط الصدّ الصلب الذي يمنع الانتصار الفلسطيني حتّى في الحدّ الأدنى. من بركات «طوفان الأقصى» أنّه قسّم العالم إلى فسطاطَين؛ إنسانيين (أصحاب ضمير إنساني) وصهاينة (تجرّدوا من الشعور الإنساني، يباركون الإبادة الجماعية ويبررونها). الأميركي والأفريقي والأميركي اللاتيني والأوروبي لم ينتفضوا في الشوارع والجامعات للوقوف في جانب الفلسطيني لأنّه المظلوم، مع أنّ هذا دافعهم الأول، بل انتفضوا، أيضاً، بشكل غير مباشر، لشعورهم أنّه يتمّ استغلالهم واستخدام أموالهم وعلمهم وحياتهم في سبيل أيديولوجيا غير إنسانية مُجرمة تبيح استعباد البشر وسلب أوطانهم وتهجيرهم قسراً، واحتقارهم في سبيل غايات دينية لاهوتية غيبية تهدف إلى خاتمة تقود إلى حرب إبادة عالمية يُطلق عليها «هرمجدون». في قراءة لتأثير حرب غزّة على الضمير الإنساني، وبحسب الإحصاءات في مواقع التواصل الاجتماعي، أصبح أنصار فلسطين بالمليارات، بينهم يهود غير صهاينة أو بعد حرب الإبادة تخلوا عن صهيونيتهم، بينما أنصار الصهيونية؛ دولةً وأيديولوجيا لا يتعدّون بضعة ملايين. في الإجابة عن السؤال العنوان، نقول: إنّ فلسطين الوطن باقية، وستستمر في الوجود ما دامت الأرض هي الأرض والسماء هي السماء، لكنّ إسرائيل الأيديولوجيا والدولة باتت محلّ سؤال وتساؤل كبيرين، حتّى بين قياداتها المسيحية واليهودية، لكنّ نهايتها أو هزيمتها ما زالت في بداياتها، والمستقبل لن يكون في مصلحتها بعد أن عُرّيت تماماً.

(كاتب فلسطيني)

الجمهورية الإسلامية تستخدم «تقنية الحِداد» لإصلاح سمعتها

محمد مظهري

شهدتْ جنازةُ الرئيس الإيراني الراحل إبراهيم رئيسي، الذي لقي حتفه بشكل مأساوي في حادث تحطّم مروحية، تدفّقاً كبيراً للحزن من عشرات آلاف المشيّعين. وقد قاد صلاة الجنازة المُرشد الأعلى آية الله علي خامنئي في طهران، حيث تميّزت بمراسم دينية تقليدية وعروض عميقة من الحِداد الوطني. حضر الحفل كبارُ المسؤولين، بما في ذلك قادة الحرس الثوري وشخصيات رئيسة من الجماعات المُسلّحة المُتحالفة مع إيران، مثل حركة حماس وحزب الله. كما استضافت العاصمة الإيرانية عديداً من الوفود الأجنبية رفيعة المستوى، والتي جاءت لتقديم التعازي. ومع ذلك، تحت سطح الحزن المُنظّم من الأجهزة الحكومية، بقيتْ الأجواء الداخلية مشحونةً بالتوتّر والانقسام. بعض المواطنين، ولا سيّما أولئك الذين تعرّضوا لقمع من الحكومة إبّان الاحتجاجات التي اندلعت على وقع وفاة مهسا أميني في عام 2022، أعربوا علناً عن ارتياحهم، بل وحتّى احتفالهم بوفاة الرئيس، وذلك لأنّ فترة ولايته اتصفت بتكثيفِ دوريات شرطة الأخلاق واعتقال النساء لعدمِ الامتثال لقواعدِ الحجاب الإسلامي.

على الرغم من عدم وجود تقرير رسمي يوضّح الظروف المُحيطة بحادثِ تحطّم المروحية، هنالك سؤال مُلحّ يفرض نفسه: من يستفيد من هذا الحادث المأساوي؟... تشيرُ الأنماط التاريخية إلى أنّ النظام الإسلامي في إيران قد يكون أكبر مستفيد من مثل هذا الحدث. فبعد الاستبعاد الواسع للإصلاحيين خلال الانتخابات الأخيرة، شهدت الجمهورية الإسلامية الإيرانية تآكلاً كبيراً في قاعدتها الانتخابية، إذ سجلت الانتخابات البرلمانية لعام 2024 انخفاضاً قياسياً في نسبة المشاركة إلى 41%، وهي الأدنى منذ الثورة الإسلامية في عام 1979. يستمر هذا الاتجاه الذي لُوحظَ في الانتخابات البرلمانية لعام 2020 بنسبةِ مشاركةٍ بلغت 42%، والانتخابات الرئاسية لعام 2021 بنسبةِ مشاركةٍ بلغت 48,8%. ويعتقدُ الخبراءُ السياسيون أنّ هذه الأرقام تعكسُ عدم الرضا عن النظام السياسي.

> تعتبر السلطات الإيرانية الحادث المأساوي للرئيس رئيسي فرصة ذهبية لإعادة تأهيل سمعة النظامَ الإسلامي

> يُبرز التلاعب بطقوس الحداد البارع للحكومة لرأس المال الرمزي لتعزيز شرعيتها في إطار مشهدٍ اجتماعي وسياسيٍ مُعقّد

وفي هذه الأجواء، تعتبر السلطات الإيرانية هذا الحادث المأساوي فرصةً ذهبيةً لإعادةِ تأهيل سمعة النظام الإسلامي، التي تضرّرت بسبب قمع حركة «امرأة حياة حرّية»، التي انطلقت بعد وفاة مهسا أميني في عام 2022، كما يمكن أن يساعد على تجاوز نتائج الانتخابات الأخيرة، والتي أصبحتْ مُحرجة بسبب انخفاض نسبة المشاركة في التصويت. والملفتُ أنّ كبارَ المسؤولين كانوا يَبدون متماسكين في مواجهةِ هذه المأساة. ففي اجتماع مع أسَر أعضاء الحرس الثوري قبل العثور على ركّاب المروحية، طمأن آية الله خامنئي الشعب الإيراني بأنّه لن يكون هناك أيّ خلل في عمل البلاد. لاحقاً، وأثناء استقباله رئيسَ مجلس النواب اللبناني نبيه بري، قال خامنئي: «هذا الحادث صعب علينا، ولكن بفضل الله سيستخدم الشعب الإيراني مثل هذه الأحداث المريرة فرصةً»، وأضاف: «بإذن الله، سيستفيد الشعب الإيراني ويستغلّ هذا الحادث». لأنّي صحافي إيراني، تعلّمت قراءة ما بين السطور، يبدو أنّ هناك خطّة استراتيجية لاستغلال مراسم الجنازة لتحقيق مكاسب سياسيةٍ أوسع. وفي سياق الجمهورية الإسلامية، يختلفُ دورُ الممارسات الجنائزية بشكلٍ كبير عن أدوارها الدينية التقليدية. تهدف الممارسات التقليدية للحزن العام بشكلٍ أساسي إلى تسهيل التعبير عن المشاعر الجماعية، وتعزيز التماسك الاجتماعي، وإظهار الدعم لذوي الموتى. في المقابل، تعمل الطقوس الجنائزية المدعومة من الحكومة باعتبارها «تقنية الحِداد»، استراتيجيةً لتحقيق أهداف سياسية وأمنية خاصّة. وتؤكّد هذه الأنماط محاولة المؤسّسة السياسية التلاعب بالمشاعر العامة، وتعزيز سلطتها خلال فترات عدم الاستقرار السياسي.

وعلى مرّ التاريخ، جمعتْ الحكومات الشيعية، من العصر الصفوي إلى الجمهورية الإسلامية، قروناً من الخبرة في تنظيم مراسم الحِداد، مستلهمةً واقعة كربلاء. وقد أضفتْ هذه التاريخية قدرة كبيرة على استخدام تكنولوجيا الحِداد بفعّالية. وتمّ استخدام هذه التكنولوجيا بشكلٍ بارز خلال الثورة الإسلامية عام 1979، عندما استخدمَ معارضو الشاه مراسم الجنازة لتحريضِ المواطنين العاديين ضدَّ النظام الملكي. هذا، وفي إيران، البلد ذو الأغلبية الشيعية، ترتبط مراسم الجنازة بشكلٍ جوهري بإحياء ذكرى الإمام الحسين، حيثُ استخدمت القوى الثورية هذا المنبر لبناءِ سرديّةٍ لتصوير الشاه شريراً شيطانياً، وآية الله الخميني منقذاً. كذلك، وبعد مرور سنوات على انتصار الثورة الإسلامية، استخدمت هذه التقنية للتعتيم على عديد من الأحداث المأساوية، التي تسلّط الضوء على ضعفٍ أو تراجع كفاءات النظام. فبعد الثورة مباشرة، لعبتْ مراسم الحِداد دوراً حاسماً في الحفاظ على التضامن الاجتماعي والسياسي، لا سيّما في سياقِ كثرت فيه الاغتيالات السياسية. كانت هذهِ التقنية الثقافية تعمل باستمرار على تقديس الشخصيات بعد وفاتها. على سبيل المثال، كان رئيس السلطة القضائية الإيرانية الراحل محمد حسيني بهشتي، الذي قُتِلَ في تفجير عام 1981، متّهماً من بعض السياسيين الراديكاليين بأنّه رأسمالي وموال للغرب. ولكن، بعد اغتياله، وجنازته التي حضرها كثيرون، تحوّل إلى بطلٍ وطني. حدثتْ ظاهرة مشابهة مع الرئيس الإيراني الأسبق محمد علي رجائي، الذي اكتسب بعد وفاته مكانةً مقدّسةً بوصفه رمزاً في خدمة الشعب. مرّةً، سألتُ صديقاً مسنّاً عمّا سمعته عن رجائي باعتباره أفضل رئيس للجمهورية في إيران، فأجابني الصديق بأنّ فترة ولاية رجائي رئيساً قتل في 30 أغسطس/ آب 1981، لم تستمرّ بالكاد شهراً، ما يجعل من الصعب تقييم أدائه. ومع ذلك، شكّلت الدعاية المدعومة من المؤسّسات الحكومية أفكارَ الأجيال الشابة مثلي، والذين لم يولدوا في ذلك الوقت، فنعتبر رجائي شخصية مُقدّسة. في المقابل، لم يكن أربعة رؤساء سابقين محظوظين مثل رجائي ورئيسي. فقد تمكّن هاشمي رفسنجاني، ومحمد خاتمي، ومحمود أحمدي نجاد، وحسن روحاني، من البقاء وإكمال ولاياتهم الرئاسية، ولكنّهم أصبحوا منبوذين داخل النظام، وتعرّضوا لغضب القاعدة المحافظة للنظام الإسلامي. تلتْ وفاة رفسنجاني في الثامن من يناير/ كانون الثاني 2017، في ظروفٍ مريبة، جنازةٌ حضرها كثيرون، ولكن، لم تُروّجها وسائل الإعلام الحكومية بحماسة.

إذن، يبرز هذا التلاعب بطقوس الحِداد الاستخدام البارع للحكومة لرأس المال الرمزي لتعزيز شرعيتها وسيطرتها، في إطارِ مشهدٍ اجتماعي وسياسي مُعقّد. دعمتْ الحكومة باستمرار وشجّعت تقديس الجنازات الكبرى للشخصيات التي تتماشى مع سياسات المُرشد الأعلى. بالنسبة لنظام إيران الشيعي، كانت المظاهرات الجماهيرية حاسمة منذ أن توافد الملايين إلى شوارع طهران للترحيب بالإمام الخميني الكبير في عام 1979 إبّان انتصار الثورة الإسلامية، كما حضروا جنازته بعد عشر سنوات. في عام 2020، شارك ما يُقدّر بمليون شخص في المسيرات الجنائزية للواء في الحرس الثوري الإيراني قاسم سليماني، الذي قتل في ضربةٍ جويّة أميركية في بغداد. امتدّت هذه الجنازات إلى ما وراء حدود إيران، حيث أقيمت مراسم من الرابع إلى السابع من يناير/ كانون الثاني 2020 في عدّة مدن في العراق وإيران، بما في ذلك بغداد، وكربلاء، والنجف، والأهواز، ومشهد، وطهران، وقم، ومسقط رأسه كرمان. استخدمت الحكومة الإيرانية هذه الأحداث لتظليل الحوادث الكارثية مثل إسقاط طائرة ركّاب خلال ضربة صاروخية على قاعدة عسكرية أميركية في عين الأسد في العراق. يمكن اعتبار المراسم التي أقيمت تكريماً لرئيسي، والتي غطّتها وسائل الإعلام الإيرانية بشكل واسع في 22 من الشهر الماضي (مايو/ أيّار)، استمراراً لجنازة سليماني. قدّمت وسائل الإعلام المحافظة والإصلاحية تحديثات، دقيقة بدقيقة، للأحداث التي أقيمت في جميع أنحاء البلاد. حتّى بعض الإصلاحيين أشاروا إلى رئيسي شهيداً، وهو ما يدلّ على استعدادهم للمشاركة في السباق الرئاسي المُقبل على أمل أنّ تشهد البلاد تغييراً في سياسة الاستبعاد.

قد تساعد تكنولوجيا الحداد الحكومة الإسلامية مؤقتاً في إخفاء وتحويل الانتباه عن الأخطاء والكفاءات الحكومية. ولكنّ الحفاظ على التضامن والتماسك الاجتماعي رهين النزاهة والحريّة في الانتخابات الرئاسية المُقبلة. من المتوقّع أن تستشهد الحكومة بالحشود الكبيرة التي حضرت الجنازة في طهران دليلاً على شعبية الرئيس وشرعية النظام. ومع ذلك، قد تشير المشاركة الانتخابية إلى مُجرّد تعاطف مع المتوفّى، وهو ما يترك قضايا الشرعية التي تُواجه السلطات من دون حلّ.

(صحافي إيراني)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads